

مشاهداتُ بديع الزَّمانِ الثُّورسي ديوانُ شِعْرِ



فريد الأنصاري

مشاهداتُ بديع الزَّمانِ الثُّورسي

ديوانُ شِعْرِ

فريد الأنصاري

وماذا يمكن للشَّعر أن يكون إن لم يكن

مشاهدة..؟

وماذا يمكن للعين أن تفعل - عند تدفق غدران

النور - إلا أن تُشْهَدَ وتُشَاهَدَ؟

(...) وما بين مكناسة الزيتون ومجمع البحرين

في السودان، وما بين مكة والمدينة، إلى بلاد الأناضول

وخلجان استنبول؛ كنت ألهث خلف بوصلة المحبة أتي

مرساها؟

.. حتى آخر أثر لحوافر الفاتحين!

(...) وفي قمة (أثشامَلَجَا) بإستنبول، حيث

كانت له بقية من شعاع، تُقَطَّرُ نَفْحَ الروح بشرايين

الأشجار.. كنتُ أتسلق غصن حديقته العليا؛ حتى

أشرفتُ على كل المدينة؛ فرأيت ما رأيت!.. ثم..

ثم كانت (مُشَاهَدَاتُ بديع الزَّمانِ الثُّورسي)!

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الإهداء

إلى بلبل الأسحار والأقمار..

الذي وُلِدَ عن انفجار جبل (أَرَارَات) بالأناضول!

وتعلّم التغريد فوق شجر الصنوبر ، بجبل (تَجَام) !

ثم انطلق يُعلّم الناس منطق الطير !

ويسقيهم كؤوسَ النور، من أول دقائق الفجر ..

إلى روح الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي..

ترحموا واستغفروا...!

الكتاب: مشاهدات بديع الزمان النورسي

المؤلف: فريد الأنصاري

الإيداع القانوني: 2004 / 0465

الطبعة الأولى: محرم: 1425 هـ / مارس 2004 م.

سحب: مطبعة أنفوبرانت، 12 شارع القادسية،

الليدو - فاس/المغرب. هاتف: 055.64.17.26

مخَرَابُ المَشَاهِدَاتِ

(أنا الآن في موضع، على ذروة شجرة صنوبرٍ
ضخمة عظيمة، منتصبة على قمة شاهقة من قمم جبل
"تُجَامُ" ! لقد استوحشتُ من الإنس، واستأنست
بالوحوش...!) (....) والآن أكتب إليكم ما ورد بالبال
من خواطر على شجرة الصنوبر هذه!

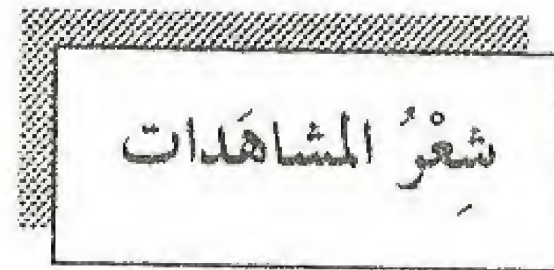
بديع الزمان النورسي / المكتوبات: ٢٣

جَمَالُ المَشَاهِدَاتِ

(واعلم: أن إكسير الإيمان إذا دخل في القلب
صير الإنسان جوهرًا لائقًا للأبدية والجنة، وبالكفر
يصير خزفًا خاليًا فانيًا. إذ الإيمان يرى تحت القشر الفاني
لُبًّا لطيفًا رصينًا. ويرى ما يُتَوَهَّمُ حَبَابًا مُشْمَسًا زائلًا؛

ألماساً متنوراً. والكفرُ يرى القشرَ لباً فيتصلب فيه فقط!
فتترل درجة الإنسان من الألماس إلى الزجاج، بل إلى
الجمد، بل إلى الحباب! هكذا شاهدتُ..!

بديع الزمان النورسي / المثنوي العربي: ١٥٨



وماذا يمكن للشعر أن يكون إن لم يكن

مشاهدة..؟

وماذا يمكن للعين أن تفعل - عند تدفق غدران

النور - إلا أن تشهد وتُشاهد؟

ومذ فتحتُ عيني على كُشبان الرمال الساربة
بين وديان السراب، بواحة الجُرف الحزين^١، رأيت
أثراً لعابرٍ على الرمال.. فاتبعتُ سبياً، وكانت رحلتي
نحو منبع النور..

ولم أزل أسير الليالي القمرء في خلوة القلوات
تُشوقني لحظةً تدفق الجمال بالأسحار، فلعلني أجده
هناك!

أو لعلني أجده من ثم سبياً، فأتبع سبياً!
وما بين مكناسة الزيتون ومجمع البحرين في
السودان، وما بين مكة والمدينة، إلى بلاد الأناضول
وخلجان استبول؛ كنت ألهث خلف بوصلة المحبة أنى
مرساها؟

^١ الجرف: اسم قرية الشاعر بإقليم سجلماصة جنوب
شرق المغرب.

حتى آخر أثرٍ لحوافر الفاتحين!

كانت طيور النورس تتردد ما بين البوسفور
وبحر مرمرة، تبحث عن شيء ما؟

وكان بديع الزمان النورسي يذرع الأرض ما
بين شروق وغروب، وهو يلتقط لآلئ الأسرار كل ليلة
بدرية!

قليل لي: قد مات سنة: ١٣٨٠هـ / ١٩٦٠م،
وتلك كانت سنة ولادتي بالذات!

فهل معناه أن لا رجاء في اللقاء؟

وقيل لي: قد دفن بقرية أورفة بتركيا، ثم نبشت
الحكومة قبره ليلا، ونقل إلى مكان مجهول! وقيل كان
ذلك مرتين! حتى انقطعت دونه أسباب الوصول! ثم
مات الذين أتلّفوه بِسِرِّهم فضاعت الحقيقة - زعموا -

إلى الأبد!

بَيْدَ أُنِي يَا سَادَتِي فُوجِئْتُ بِهِ يَوْمًا بِمَكْنَسَةِ
الزيتون! لقد شاهدته يمشى نحو مدينة زرهون، شاخصا
ببصره نحو السماء.. وكأنما يهم بمعانقة قمم الجبال
الشامخة! كنت قريبا منه جدا، لكنني لم أستطع أن
أقتحمه! ومشى فمشيت حتى اختفى بمسالك الزيتون!

ثم أوكد لكم أُنِي وجدته ذات مَطَرٍ ليلي - بعد
ذلك، في سفر بعيد - بجزيرة سَرَوَاك بِمَالِيزِيَا! كان
يصلي بليل، بإحدى الغرف العليا من فندقٍ بمدينة
كُوْتَشِي!.. ثم ضاع مني فجأة! ثم لست أدري كيف
أحسست أنه عاد مرة أخرى إلى بلاد الأناضول. قلت:
لعلي ألقاه بها.. ولكن قيل لي: ربما رحل إلى حاضرة
الغرب الكبرى، لتلقي العلاج هناك. قيل: وكان
العشرات من الكفار يُسَلِّمون على يديه!

وفي قمة (اِثْشَامَلَجَا) بِإِسْتَنْبُول، حيث كانت له
بقية من شعاع، تُقَطَّرُ نَفْحَ الروح بشرايين الأشجار..

كنتُ أتسلق غصن حديقته العليا؛ حتى أشرفتُ على
كل المدينة؛ فرأيت ما رأيت!.. ثم..

ثم كانت (مُشاهداتُ بديع الزمان النورسي) !

وكتبه فريد الأنصاري بحاضرة استنبول (حي

الفتاح)، لذوب الأصيل من يوم : ٢٦ جمادى الأولى:

١٤٢٤هـ / (٢٦/٠٧/٢٠٠٣م)

المشاهدة الأولى

أَوَانُ

إلى طالب النور: وَحَدَّثَ الْأَرْضُورِي، في خلوته المتفردة أبداً!

(إلهي! لي مِنَ الزَّمانِ أَنْ يَسِيلَ في سَيْلٍ واسعٍ سَرِيعٍ
الجَرَيانِ! وَلِي مِنَ المَكانِ مِقْدارُ قَبْرِ! مَعَ عَلاقَتِي بِسائِرِ
الأمكِنةِ والأزمنةِ. فلا حَوْلَ لي عَنِ العَلاقَةِ بِها، ولا
قُوَّةَ!) النورسي/اللمعات: ٥١١

.....

هو الأَوَانُ أَنْ !

لكنني لما وصلتُ لم أجد سوى الأسى!..

وشهقةٍ أخيرةٍ من الصدى..

ترددتُ هنا من قبل أن يَصْدَعَ الزمانُ!

وجدتُ جَرَّةً تكسرت على خرير الماء
فسال النور هارباً يا حسرتي!
واعقل الأشياءَ كلها عمى الألوان!
وقمت لاهثاً بين الوجوه!
أبحث عن إشارة تدلني على الغدير
لعلني أظهر الجروح من أدرانها
وأملأ العينين من أمواجه بحفنة من نور
لعلني أرى منطقَ الطير في الأشجار
وأسمع الألوان كيف تنسج النشيد
يا سيدي!

فرمما أجد ههناك ومضةً
أو أثراً لريشة قد لوّنت فضاءها بنغمٍ من دفقة الصباح
ولم تنزل تذوب في أمواجه الأطيّار والأمطار
وتشرب الغدران من إشراقها
وتشهق الرياحُ

هو الأوانُ آنُ
وهذه استنبول لم تنزل تذكُرُ وعدّها
ولم تنزل يَرُدُّ ديكها على صدى الأذانِ
وعينه ترقُبُ (بُورَصاً) من بعيدٍ
فرمما هناك يبدأ الزمان!
ربما..؟

آه وآه! يا سيدي من (ليتي) و(ربما)!
فمن لقلبي المتبول سيدي بخارق من نور
يشق صمتَ الليل فجأةً

فيرسم الطريقَ نحو نبعه العظيم!..
فإنني لم يبق مني غير قطرة أو قطرتين!
وينتهي الرهان!

استنبول/حي فاتح: ٢٦ جمادى الأولى ١٤٢٤هـ —

٢٦/٠٧/٢٠٠٣.

المشاهدة الثانية

صورة مهربة لبديع الزمان النورسي

إلى الأستاذ المربي مصطفى صغور

قال لها ذات ليلة: (فلا تُديرين رأسك فرقا من الموت!
خائفة من القبر، بل حدّقي في القبر! وانظري إلى حفرة
بشهادة! واستمعي إلى ما يطلب! وابتسمي بوجه الموت
برجولة! وانظري ماذا يريد؟ وإياك أن تغفلي!)

الكلمات: ١٩٣.

تحيين رائعة كالغدير

فتملاً أنفاسك المشتهاة هائل روعي

وتطعمني من رحيق الرضاب

فها هي ذي الآن أعرافها تتهدل مثل غدائر (لُونجَا)
وتصفنُ بالباب

تسألني جارتي:

— من تراها التي ..؟

وتدخل — آه — لتبسن روضة روضة؛ حتى آخر
أنفاسها ..!

تُصيرني نغما جارفا ..

فينساب جدوله مطلقا في المدى ..

ولا كانسياب الرباب!

.....

ها إنا الآن في الشمس جسم لطيف كذوب الضحي

قد توحد حتى الأنين الأخير، وشف؛ فلا ظل منا

يُعفرُ خطوتنا بالتراب!

ألا أيها العمر المتدفق سهواً، لماذا تُكذِّبُ كلَّ المساءات
منك مرايا اشتعالي؟

فتوهمني أنني في جنان اللهب، وما هي إلا صدى
صرخة واحدة؟

ليس يحجبها عن أساها سوى خطفة من نعاس خفيف!
وأذكرُ حين استهل ثغائي الوليد
وأنت تمدين كفيك نحوي ..

كان حضنك مثل الحرير يزملني بالتراتيل والأمنيات
ولا كيدي أُمي الباكية
قلت لي : إنطلق !

فانطلقتُ؛ فكان فؤادي نخيلاً ..

وكان نداؤك أول عصف الخريف !

آه ويحي !

كفها تطرق الآن بابي ، وتصفنُ أعرافها ..

تتهدّل مثل غدائر (لُوجَا) ..

وتسألني جاري :

من تراها التي ..؟

فأدخلُ يقظتها / سُكرها حتى آخر جذبتها السابعة !

فها هي ذي الشمس تمتص كلَّ رحيقي ، وتشرني حطباً
أو هشيماً!

فأمسي على شاطئ الروح وحدي

لَقِيَ مهملاً من قشور الحار !

فيا أيها العابرون العطاش بلادي سرابٍ يمد السراب !
وليس بأحداق خابيتي قطرةً من ندى ..

فماذا سوى الماء يحتضن الماء في غَيْهَبِ الكلمات؟

أَعْلَمُ سيدي أن الموعد وقت !

لكني ما زلت أحن إلى رائحة الطين إذا انطلقت أشواقا

تملاً معمار الفخار !

وجمال الحزن الليلي

وَمَسْرَى الْعِشَاقِ

وَهَسْهَسَةَ السَّبِيلِ فِي أَوَّلِ أَنْسَامِ الصَّيْفِ !

وَتَرَاحِي الظِّلَّ عَلَى الْمَاءِ ..

وَلَكِنْ

كَفُّكَ سَيْدِي تَطْرُقُ بَابِي الْآنَ ، وَتَصِفُّنُ أَعْرَافُكَ

تَتَهَدَّلُ مِثْلَ غَدَائِرِ (لُونْجَا)

فَتَسْأَلُنِي جَارَتِي :

مَنْ تَرَاهَا الَّتِي .. ؟

ثُمَّ أَرْمَقُهَا خُطْفَةً مِنْ وَمِضْ أَحْتِيَارِي

وَأَمْتَدُ مَوْجَا عَلَى وَجَعِ نَوْرَسِي

وَأَرْحَلُ فِي نَفْحَاتِ السَّحَابِ !

حُلُمًا كَانَ عُمْرُكَ يَا وَلَدِي ..

أَوْ ظِلَالًا لِرُوحٍ خَفِيٍّ

تَسْتَمِدُّ سَنِي لَوْهَا الْقَرْحِي

مَنْ رَأَى سُدْمَ وَاهِمَةٍ !

.....

غَابَتِي ، تَسْبَحُ الْآنَ فِي حِيرَةِ الْمَاءِ ..

فَانْسَلِي عَنْ ثِيَابِي غِلَائِكَ الْمَشْتَهَاةِ ..

فَقَدْ ذَابَ وَهْمُكَ ..

وَيْ ! .. ذَابَ كُلُّ التَّرَابِ !

مكناس / المغرب : ١٩٩٨/٠٥/٠٩ م

المشاهدة الثالثة

الجواب الأخير لبديع الزمان النورسي

إلى الأستاذ فرنجاوي: الأمي الذي قرأ كل اللغات!

(أتكلم في مقامي، لا في مقام السامع المواجه لي، خلافاً
لسائر المتكلمين، الذين يفرضون أنفسهم في مقام
السامعين (...)) فإذا لا أذهب إلى مقامه، فليرسل هو
خياله إليّ لأضيفه على عيني، في رأسي؛ كي يرى كما
أرى!) (المتنوي العربي النوري: ٢١٨)

أما بعدُ

فيا ولدي الموعود!

إني أزجيك سلامَ الوارد من آخر دَفَقَاتِ النور ..

هذا جوابك تنساب إليك مواجهه من خضرة هذا
الليل الساجي ..

وظلال القنديل المشهود
قرأت سؤالاتك رشفاً ، رشفاً

فإليك نثار مواجهها :

وتسألني يا ولدي عن كنه اللذة عند تجلي رونقها
الرقراق على القلب .. كأنك لا تعلم أن ليس المسؤول
بأعلم من سائله .. آه!

والوقت له أدب ، كل سؤال قبل مقام الإذن على
صاحبه مردود!

آه يا سالك مردود!

يا ولدي .. وتعلم!

إن هو إلا مسرى من أبراج الليل الغافي

تقطنه الأقمار الخمسة ، من يكشف سرَّ مطالعها يخطفه
الشفق الأخضر

أو يسكنه الصوت الآخر

أو تتفجر من بين محاجر غدران النور

أو (....)

لا حصر لأحوالهم يا ولدي

ما أعرفه أن هيب تحولهم لهمو سلم !

أما لحظات النجوى فرحيق ورضاب

ليس لنا من مطلعها وقت موزون

لكن أمارتها أن تلد الليلة بهجتها ..

وترى العشاق حفاة يلتقطون نثار النجم ولألة الغيم

عسى أن تومض أعينهم بإشارات الدر المكنون !

تلك مدارجهم .. عالية الأبواب !

يا ولدي .. فتعلم !

ويحك لو تدري ما متعة شهد الإشراق الصاحب في

صمت الغابات الساجي !

يا عجباً !

تسمعه العين ، ولا ينقر في الأذن لضجته بمهاوي
الشلال طنين !

فاشرب واركض يا صاح برجلك !

نار المغتسل السلمي لك برد واشرب !

ذر نداها الشارد يكفي لسقاء الهلكى عطشا

ما بين النخل المغبر بمراكش والصدأ المتكلس حول

منارات اسطنبول !

يا ولدي .. فتزود !

آه لو تمتد عروق الماء قليلا - قلت : قليلا - لانبجس

الروح الشجاج بكل الغابات صفاء وجمالاً !

فإذا الأجساد تشف ، تشف ؛ فلا نبض إذن تكتمه

الأضلاع !

وما غير الحمأ المسنون يحاصرنا بروائح ؟

حتى ليس لنا من كل محيطات العالم إلا هذا البحر

الميت !

المشاهدة الرابعة

لأربعينية الجريد أغني..

إلى الغصن المتجرد للنور: الأستاذ فارس قايا

(ورغم أنني لم أكن أعد نفسي شيخاً بعد، ولكن من يرى الحرب العالمية يشيخ! (...)) ومع أنني كنت قريباً من الأربعين إلا أنني وجدت نفسي كأني في الثمانين من عمري!) سيرة ذاتية: ١٣٢

.....

قادمٌ مثل الرمال من بعيد ..

أعدُّ لوعةَ السفار شهقةً فشهقةً

.. وعندما أحصيتُ من مواجع اليمام أربعين نخلةً

رأيتُ ما رأيت ..

رأيت للجريد رعشةً

يا ولدي .. فاحفظ عني!

إني لا أغرف مني!

آخر كلمات النور بدايتها

لا تسلك منها بحراً أو نهراً ، أو حتى ساقية!

واسلك يا ولدي قطرة!

أو ذرة!

ترفعك الأمواجُ أميراً بمحيطات الملكوت !

هذا آخر عهدي .. يا ولدي

فاحفظ عني !

إني أهكني الرشح المحموم فلم يبق بخايتي إلا غرفة دن!

والقطر رتيب آه رتيب !

أبدا لن يترك مني !

مدينة القصر الكبير / المغرب : ١٥ / ٠٨ / ١٩٩٨ م.

تبعثر اخضراره على الثرى ..

وللهديل نايه ينساب صفرة على دمي

فكان ما رأيت ..!

ثم اتبعت سبباً ..

حقى إذا اختليت عند شاطي

تموت في سكونه منازل الرياح

وليس إلا الروح فيه يجمع الصدى ..!

رأيت وجهي الحزين وحده يُغرب الخطى ..

ثم بكيت !

يا سيدي الجريد ..!

ما بال سرك القديم يوقظ الجوى بخافقي ؟

يرش خوفي الملتاع بالندى ..

ويختفي !

.....

آه .. وآه !

ولم يزل مكنون طيفها البهي هاربا بين الظلال

قبضت ألف قبضة بين يدي سَعَفِكَ المجنون

فلم أجد إلا دمي وشوكك المسنون !

يا سيدي الجريد !

ولم أزل أذكرُ إذ حدثني عن طيفها .. عن سرها ..

عن حظي الملعون !

وقلت لي : غدا تراها أو تراك

تسقيك من رضاها ، من حمرها المباح

لكنني يا سيدي

عَدَدْتُ من أبراج هذا الشوق أربعين ..

ثم اتبعت سبباً ..

ولم أزل أنتظر الأشباح والرياح ..!

يا سيدي الجريد !

حدثني هاتُفَكَ الفَتَانُ ذات ليلة ..
 بأنها تخرج في الصحراء كالغزال عاريةً
 تلتقط الأسرار من كرائم الأحجار
 لكنها من لحظةٍ لِلْحِظَةِ تحجبها الأنوار
 يا أسفي ..!

وتختفي !

وقلت لي (...) وإنما تنام غرباً في سرير الشمس
 ثم اتبعتُ سبياً ..

حتى إذا رأيتُ من إزارها الشفاف ما رأيتُ ..
 اشتعل اللهبُ بالمشيب !

ثم بكيت !

يا سيدي الجريد !

وقلت لي : اختلس بهاءها بلُجَّةِ النَّهَرِ
 إذا تجلت الأقمارُ بالأسحار

فإنها هناك تستحم خلسةً
 تغسلُ من بلورها الحوري
 لطائف الأسرار ..!
 ثم اتبعتُ سبياً ..

حتى إذا اقتربتُ من هائل الحمى
 وكنتُ قاب ومضة من اللَّمى ..
 - واحسرتي ..! - أصبتُ بالعمى !
 ثم بكيت !

يا سيدي الجريد !

ولم تنزل تغري فؤادي بالمزيد
 من وهمك المضني
 ووعدك البعيد !

الأربعون نخلة تنثر في دمي ثمارها ..
 فما عددتُ إذ عددتُ من سفارك الحزين

إلا مواسم القطاف !

فأتبعتُ سبياً ..

حتى إذا رأيتُ ما رأيتُ من مرآتك الوهّى

تدققُ الرُّعاف !

وقلتَ لي : ها قد رأيتُ !

فأتبعتُ سبياً ..

ثم بكيت !

عبر الفضاء بين مطارات الدار البيضاء / العيون / الداخلة:

٢٥/٠٥/١٩٩٩ م .

المشاهدة الخامسة

البحث عن فرس استنبول

إلى وارث السر: الأستاذ فتح الله كولن

(لقد نشأت في جبال الشرق، فكنت أتخيل

مركز الخلافة في هالة جميلة (...)) ولكن لما شاهدت

استنبول المريضة وجسست نبضها، وشرحتّها، أدركتُ

أن المرض في القلب! ثم سرى منه إلى جميع الجهات.

فحاولت علاجه؛ ولكنني أُكْرِمتُ بوصمي بالجنون!

صيقل الإسلام: ٤٧١

.....

هل غادر الغدير نبضَ صخره؟

أم هل جفاه غاضبا سناء برقه؟

فأينها.. تلك التي كانت هنا

ما بين مائه وعطره؟

تشرب من أشعة الندى..

وتلثم الثمر..!

أليس ههنا رأيتها تسكن في معابر الشجر؟

وذاات غفوة.. تبددت أطياؤها خلف الربى..

كأنما امتطت شعاع الشمس ثم غربت

فأصبحت أفئدة الأشجار فارغة!

وأرسل الغدير بينها أغرودة الحزن!

قيل لي: مرت بها الخيول عند بابة السرى

وركضت يسكنها الصهيل!

*** **

وقيل لي: قد رُئيت عند المساء عارية

تدخل بحر مَرْمَرَة

وتركت على الرمال حافرا مَرَقَمًا

وأثرا يشبه غصن شجرة..

*** **

يا سيدي البوسفور!

بربك الذي براك بين خافقين!

تَنَقُّلُ من رسائل المحبة السلام

أقسمت أن تضميني إليك!

مرجانة من نور

أو صدفة تُخرج من لؤلئها

هدية لها؛ لعلها تعرفني

فتشرق استنبول من جديد!

وقيل لي: قد خرجت من متحف قديم

واخترقت - يا عجباً - كل العيون

وأنشدت على "أبي أيوب" حزنها

حتى بكى الحمام حولها

واصدع السور القديم!

فلم يُعرها أحدٌ بعض الأسي..! ثم اختفت!

وقيل لي: قد رحلت

وزعموا أن فقً شاهداً تركض في أزمير

ثم اختفت بين الكروم !

ويحي أنا المعذب المجنون !

أكلماً التقطت من أخبارها خيط السنى

خطفه الظلام..؟

((ولي كبدٌ مقروحةٌ من ييعني

بها كبداً لَيْسَتْ بِذاتِ قُروح؟))

((أبأها عليّ الناسُ لا يشترونها

ومن يشتري ذا عِلَّةٍ بصحيح؟))

.....

يا سيدي البوسفور..!

تلك الرياح مزقتني بين شاطئيك موجةً

أو حيرةً من رجفة الخريف ؟

فأخبرني عن سفينة

قد قيل لي: مورت هنا تحمل غابةً صنوبريةً

فلم تزل تمخر حُزنَ البحر

حق رست على مساء التلة العليا

ثم ارتقت معراج ريح عابر..

واندثرت!

وقيل لي: بل غادرت إلى غروب الدردنيل!

حيث الشموسُ لا تنام أبداً..!

وإنني أذكرُ من غرامها حبَّ الشعاع

فلم تزل تقطف من سنائه ورْدَ الصباح

حق أضعْتُ طيفها واحسرتي..!

بغفوتي!

يا سيدي البوسفور!

*** **

وذا ليلة رأيتها تصلي فجرها..

فقمْتُ كالحصان راكضاً

حتى أتيتُ حيَّ فاتح

وقلت للإمام: سيدي أنا المريدُ دُلّني!

فقال لي: أفي الصلاة؟

يا سيدي! قلبي الذي قد كان وحدةً

مزقه حُبُّ البحار خفقةً فخفقةً!

يا سيدي أنا المريضُ دلّني!

فقال لي: ويحك يا وجه الردى!

أأنت من يجيء من فاسٍ مهاجراً؟

يحمل في عينيه مَهْرَهَا؟

قلت: نعم؛ فأينها؟

فقال لي: قد رُكَّ الأسفارُ تُرى دونها يا ولدي...!

مآذنُ استنبولٍ أيقظت دموعها...

فرحلت...!

وما لنا من أثرٍ سوى الذي ترى!

وقال لي: ما من دواءٍ غيرِ دائِها!

فاركبْ خيولَ الحزنِ إنما هناك

تعيش في (بَارْلاً) وتشدو وجدّها

على غصون القَطْرانِ

فلم تنزل بخلوة الأشجار

تَشْهَدُ ذَوْبَ الشمسِ في بحيرة الأسرار!

.....

وقيل لي لربما تكون غادرت سرّاً إلى أزمير

لتقرأ الحروفَ خُفْيَةً

على سنى الأقمار

في أسطر الكروم

والتين والزيتون

يا سيدي الإمام دُلّني!

فإنني أنا الحيرانُ بين أنجم السَّفرِ!

*** **

وقيل لي - يا سيدي البوسفور - ربما تجيء من طريق
وَأَنْ

تحمل من غيرها ذكرى انجذاب الرُّوح

وتنثر الأزهار في الطريق للرياح

وقيل: بَلْ لَغَابَةِ "اسْبَارْطَا" جمالٌ يجذب الأطيَّارَ
والأمطارَ..

فاركبْ لهاثَ القلبِ نحوها

فرمما لَيْلَاكَ في سفوحها تحوطها الغزلانُ

مخطوفةَ الأبصارِ من جمالها..

وقيل لي: بل هي في (بُورْصَا)

تلتقط النجومَ والحجارةَ الكريمةَ

تَخُطُّ فوقَ قِمَّةِ الثُلُوجِ (نُونُ)

والقَلَمِ وما يسطرونَ

*** **

يا سيدي البوسفور..!

ها غيمُك الجليلُ يزدهي بِدُرِّهِ الجميلِ
فاقرأ سلامَ البرقِ للشيطانِ في مدائنِ الأحزانِ!

وقل لهم: سنلتقي بموعد الأذانِ !

إذا تحرك الحجيجُ في مسيرة النخيلِ

يُكَبِّرُ الإمامَ أولاً

.....

ويشرعُ الصهيلُ !...

شاطئ بحر مرمره، منطقة (Gurpinar) (المنبع الفياض)

استنبول: ٢٧/٠٩/٢٠٠٢.

المشاهدة السادسة (٢)

المكتوبُ الذي لم يُكْتَبْ !

إلى الأستاذ كنعان المسافر في رسائل النور أبدا...!

(كلما نادى اللذائذ ينبغي الإجابة: "كأنني أكلت!") (٣)
فالذي جعل هذا دستوراً له لم يأكل مسجداً...!

(الكلمات: ٨٦٩)

² بقيت كلمات في رسائل النور غير مكتوبة! وصارت من (المسكوت عنه)، فتوات أسرارها بالحجاب! وذلك مثل قوله: (الكلمة العاشرة: لم يكتب هذا المقام بعد!) الكلمات: ١١٥.

³ عبارة (كأنني أكلت): اسمٌ عَلَّم على مسجد من مساجد استنبول، يقع في حي السلطان محمد الفاتح. بناه رجل فقير مما أدخره من قوته اليومي، فكان يقول بدل أن يشتري طعاماً يشتهيهِ: "كأنني أكلت!" فيضع النقود في بناء المسجد!

.....
أميرة الخلوات يا سيدة الأنوار!

أتذكرين كيف أنا

قدمنا من منابع الشمس والأقمار؟

نهرَّبُ الشعاعَ في أقبية السجون!

ونوقد للنور ألفَ دمعةٍ ودمعةٍ

ونصطلي من قرهنٍ في محارب السحر

حتى تُسَرِّجَ البروقُ خيلها / هيبها!

وتقذف الظلامَ من مآذن استنبول!

وتزرع البوسفورَ بالمطر!

وكيف أنا دفعنا للسناء رغيفنا الأخير!

عسى يكون للطيور درسها الحديد

تُعَلِّمُ الفراخَ من منطقها الحكيم:

(كأنني أكلت!)

سيدتي.. أتذكرين؟
 لما سَطَا السجانُ في أفيونٍ
 على بقايا التين والزيتون
 وصادر الصباح في عيوننا
 وغرب الحمام عن أبراجه
 وسوره القديم!

ولاحقَ الأعشاشِ من وَاِنٍ إلى استنبولٍ
 وأخرسَ الهديل في قباب (بَا يَزِيدُ)
 وجامع السلطان
 واعتقلَ الأشجانَ في قلوبنا.. وجرمَ الأحزان!
 وهيجَ النوارسَ الوهّى
 على ضفاف مرمرّة
 وشاطئ البوسفور

وكان حالها الرهيبُ مثلما رأيت!

وكان نوحُها وعزفُها المحزونُ
 فغصت الأصداءُ بالبكاء
 وانفجرت رعودُها/ أسودها مُزْمَجِرَةً!
 وانطلق الأذان:

(كأنني أكلت..!)

(كأنني أكلت..!)

سيدتي أتذكرين؟

لما أتانا هُذُودٌ من نُورسٍ
 يرفُ في مباحج الجمال
 منقارُه، أعرافُه، ألوائُه..

ولا يُرى على بهاء أثر السفر!
 وحطَّ فوق (اثْمَلَجَا)

ثم بنى أعشاشَه/ أحزانه على عرائس الشجر
 وكان أن تداخلت أطيافُه/ أبداله ببلبلٍ من أرضِ روم!
 وكان من هديله الحزين ألفُ حسرة وحسرة

وجاءنا سيدتي نبأ يقين !
 مدَّ جناحه إلى الطيور فجأة
 فأشرقت ألوانه كالشمس في المطر
 وامتلاً المكان كله
 هداهد من نور...!
 تيجائها المرجان والبلور
 وقال لي:
 دجَّال آخر الزمان خارج من ههنا
 وهزَّ عرفه الصغير وأشار
 نظرتُ بانشده، ثم قال:
 بُعيد رجفة أخرى!
 صرختُ ملء ألي:
 واندمني .. !

كيف وهما الصباح لم يعد إلى البلاد؟
 ولا مضت طلائع النجاة!

والخيل والليل القليل؟
 والسيف والرمح الكسير؟
 وثأرنا القديم في ممالك الرماذ؟
 ودوحننا، وظلنا، وماؤنا، وتاجنا السليب؟
 لكنه يا سادتي ألقى جناحه إلى الرياح واختفى!
 فأنكرت كل الطيور نفسها!
 فظللها وماءها!
 لكن نور ريشه الملائكي لا يزال
 يَبزُغ عند كل فجر صادق بين الجبال
 وينحني عطفاً على الأسوار والقباب
 يُعلمُ البلابل الأسماء كلها!
 ولم تزل تُردِّد الهداهد الوهي صداة:
 (كأنني أكلت...!)
 (كأنني أكلت...!)
 سيدتي أتذكرين؟

أتذكرين خوفنا رجاءنا وفزعة الظلام!
لما بكينا حُلْمنا القديم تحت طورِ آاراتٍ
وانفجر البركانُ لاهباً
بالبرد والسلام!

وحينها رأيتُ ما رأيتُ!

وكانت المشاهداتُ فوق طورِ (تَجَامُ)
ما بين حضن الدُّبِ أو على غصونِ القَطِرَانِ
فَصَحْتُ في الوديان كالجنون سائحاً:
(كأنني أكلتُ...!)
(كأنني أكلتُ...!)

مكناسة الزيتون: الأحد ٢٠ شوال ١٤٢٤هـ

٢٠٠٣/١٢/١٢

المشاهدة السابعة (٤)

مواجهيد أبي العالية الرياحي

إلى الشاعر محمد علي الرباوي

في خلوة (الأعشاب البرية) (٥)

(الموت: تبديل مكان، وتحويل موضع، وخروج من
سجن إلى بستان! فليطلب الشهادة من كان يريد
الحياة!) الكلمات: ٨٦١

⁴ أبو العالية الرياحي أحد زهاد التابعين كان عبدا لامرأة
في العراق، فلما اشتهر بزهده أهدته حلقة الحسن
البصري، ولقب بذيح الله. وكان إذا ذُكِرَ بالله صعق!
- والمواجهيد: جمع موجوده، وهي حال ذروة الوجد.

⁵ الأعشاب البرية: اسم ديوان للشاعر الرباوي.

.....

يُورقني الدَّجَنُ ياسيدي

فأنادي المواجهي عَلَيَّ أرى هؤلاء المريدين يفتتحون

القنوت، فأرقص فجرا على طلقات المآذن!

حتى إذا كان بدء التجلي رميت بنعلي، وصحت

بَطْبَقَال^٦ في وجه كاهنة الليل:

- ويحك إني أنا النور والنار آتيك باللهب المتوقد في

بطن مراکش!

فما زال يومض مذ كان رسمُ الغصون على ظهر آدم

فاضرب ببرق الغمامة يرتفع الموبق!

وأشعلتُ دمعِي فازْئَلْ الطودُ قبل السلام!

فعفوا أيا شيخُ هذا زماني!

فما عاد نوح المحبين ليلاً تُرْجَعُ أصداءه هائِلاتُ الإمام!

وهذي التراتيل أسرى، وكل الهديل تمزقه العاصفاتُ

فأني تصيخ إليه العراق فتبكي؛ وها البصرة اليوم
مسجدها مغلق!

فإما يكون السَّفَارُ إلى منزل الوجد فهو بطن الكهوف

البعيدة، إذ تقلع السفن العارياتُ إلى شاطئ الأنس

فأبكِ تر الأرضَ توقف دورها وتُرجِعُ نوحك زلزلةً

يتصدع من هولها الغرب والمشرق!

ولكنني عاشقٌ .. والنواخُ ربيعُ الهيام

يؤسفني! .. فبكائك يا سيدي اليوم عاصفةٌ تقلق!

وهل كنتُ أبكي مريداً؟

فإن أنا إلا ذبيحٌ، دمي كان غيثاً لزهر البراري، وعشب

الجبال الخوالي

وما نوحِي اليوم غير صدى الصمت يعزفه في فؤادي

سكون الليالي

فأوقِفْ إذا شئتَ هذي العواصف! إني خريفٌ

⁶ جبل طَبْقَال: أعلى قمة من جبال الأطلس المغربية.

فكل الغصون تباح قصائدها للرياح!
 فما أنا من شرع الاحتفال بهذي الفصول
 ولا كنت حين استفاق الندى أعينا صافيات تطل على
 حمرة الورد
 إني عشقتُ وما كنت أعلم عشقي إلى أن أحاط غصوني
 أمر السَّفار!
 فأوقف إذا شئت هذي العواصف.. ما كان مني اختيار!
 وأغلق إذا شئت كل المساجد! أطفئ مناراتها!
 غير أن المساء بها يتجلى بهاء؛ فأصعقُ - لا أدري كيف!
 - بمحراها ساجدا!

وأصلي مع الفقراء إلى أن يغيب سنا الاخضرار!
 أنا لم أكن حينما بَشَرْتُ قطرة الماء بالنخل في واحتي!
 ولا كنت حين أسرَّ جريدي بالعشق للنور قبل انزاعي
 وأقسم ألا يخون الجمال البهي!
 مريدٌ أنا ..

ولكنَّ جذب الجمال اجتباني.. فما للإرادة في بحر حي
 رسوم!
 هو النهر يجري فيفنى على موجة الانتماء الشهوي
 فيا أيها الفقراء/ المريدون نوحوا..
 فإن المحبين إن أحرموا وجدوا!
 فمن ذا قديرٌ على منع رعشة هذا النخيل
 إذا ما تولى الصبا دامعا من مقام الخشوع، وورقَ أحزانه
 وارفاتٍ على كل قلبٍ تقى؟
 فغفوا أيا شيخٌ هذي مواجيدك اليوم تفتح حالا جديدا
 بكهفي البعيد
 سأعلن أني اقتربت، وأنني اسكنتُ حزني بنبع الرياح
 بكاء/ رصاصا، ووجدا مباحا!
 فلتغلقوا الباب أو تفتحوه! هو الليلُ أعلن بدء الصباح!
 وأشرق نور التجلي بكل العراق، فلا شيء إلا استحال
 نخيلا!

فكل التماثيل نخل، وكل الصخور، وكل الحديد، وكل
المراكب
حتى البنايات صارت نخيلاً، نخيلاً ... نخيلاً!

وتدوي الرياح!

المحمدية/المغرب: ٢٨ شعبان ١٤٠٩ (١٩٨٩/٠٤/٠٥).

المشاهدة الثامنة

دجلة مَهْرُهَا من لَهَب !

إلى ترجمان الوجدان: الأستاذ إحسان قاسم الصالحي

(ولقد كنتُ في وقت ما، في الحرب العالمية الأولى، أتألم
كثيراً من المظالم والقتل الذي يرتكبه الأعداء تجاه
المسلمين! ولا سيما تجاه أطفالهم وعوائلهم! وكنت
أعذب عذاباً يفوق طاقتي! لِمَا في من شفقة مفرطة،
ورأفة متزايدة!) (الملاحق: ١٢٤)

وقال أيوب بن خولي البجلي يرثي أصحابا له قتلوا:
تركتُ تميمَ بنَ الحُبَابِ مُلَحَّجاً

تبكي عليه عرسه وقرائبه

وقد أسلمتُ قيسَ تميمًا ومالكا

كما أسلمَ الشَّحَّاجَ أمسٍ أقاربه

وقال عتبان بن أصيلة الخارجي، مخاطباً عبد

الملك بن مروان:

لعمري لقد نادى شبيباً وصحبته

على الباب لو أن الأمير يجيب!

فإنك إلا تُرَضِّ بكَرَ بنِ وائلٍ

يكنُ لك يومٌ بالعراق عصباً!

فوارسنا من يلقَهُمْ يلقَ حَتْفَهُ

ومن يَنْجُ منهم يَنْجُ وهو سليب!

وأين تدس انتماءك أيها السامري؟

فعجلك صهيون تعلقه، ليروث على القبلة العامرة!

وفي الشمس يحمل محراثه الأطلسي، ويركض بين

الخطائر، يردد في البوق من خلف كل الإذاعات، يصنع

أمجاده من عباءته الوافرة!

هنا نجد: حاضرة الروم تنشر أحلافها بين ثلّ أيب

ومكة

فالآن كل المراسم كاملة الشكل واللون

لم يبق غير المغني!

فمن قال: لا يطرب الحيّ منشده؟

فلتغنّ القيان من الشام والقاهرة!

ولا تأس يا صاحبي!

فمن ذي تكون التي تستضيف العلوج بخيمتها..

إذا لم تكن فاجرة؟

فليصرخ العجلُ ما شاء إن الخوار سيبقى خوارا:

(غدا سيحرر غاصبُ قبلتنا القبلتين!)

(ويطرد من قدسنا الأجنبي!)

(غدا سأحررها.. وطني أنا وطني!)

ستحررها؟.. وأنت تبول على ثوبك العربي!

ألا أيها الوطن المتردد بين مخاض الشتاء ونزيف الخريف!

أَلِلْشَّتو ترحف أم سَبَقَ العدلُ سيفُ التريف؟

فلمن ستغني البلابل في بصرة الحزن آه! لمن سيغني

الشجا؟

أ(لعاصفة) الخوف أم (الحسين) الرجا؟

فها أنا ذا أشهدُ النخلَ في كل واحاته أن عرجونَ

مراكشٍ من لقاح العراق!

فمن ذا قدير على مسح ذوق الأحبة في كبدي؟

ومن ذا قدير على منع مسك الردى أن يشير فضول

الأنوف

إذا هَبَّ عاصفه بين أشجار قلبٍ تَكْسَرُ أغصانه واحدا

واحدا؟

ألأني أحب؛ أبيع لمزبرة الروم في وطني أن تشرع بين

جناحي هذا الفراق؟

أحب العراق!

وللحب هيّ عليك وأمر

وللحب بوح.. وبوح الهوى من زعاق!

ولكن أنا صاحبي ما شرعتُ الهوى..

فها هي فاسٌ مآذنها كل فجرٍ تردد عشق العراق!

وإن كان شيخ السلاطين يصنع فتواه حلوى يؤلفها..

ثم يأكلها إذ يجوع مساء!

فبؤت بخسرانك اليوم من تاجر!

أتجيز الركون لظل النفاق؟

بناءً على (سند) من ذهب؟

وتدهن! كيف؟ وإنك تدري بأن ارتداء اللهب
احتراق!

وربقة دينك يا صاحبي من هب!

أحب العراق!

فها وجدّة اليوم شاهدة أن طنجة سيدة العشق لما تزل
تنثر الحزن سارية في ضباب الرباط

وتسأل: أين فتاها؟

فكل الذين يمرون من بين أحزائها ساربن يجيبون:

إننا رأيناها يوما يمر هنا عبر هذي الشوارع سيلا يشر

بالانعتاق!

كان مصحفه راية كبرت للزلازل:

يا أيها العجل! موسى على الدرب آت

فأخبر عبيدك: ملتنا مطر من لظى!

فاغتسل يا شهيد!

وأعلن لهوج الرياح: برئت إلى الله من ملة الإرتفاق!

أحب العراق!

وللحب هي عليك وأمر

فكيف السبيل إليك أيا دجلة الخير؟

ها مهرك اليوم صار لهيبا!

فهل يا (سبو) قد تراك قديرا على سبق

أقرانك العاشقين؟

وفتح جناحيك للقادفات، تزغردن بين

النخيل؛ فتنصب (الله أكبر): رايتك المشتهاة

يبارز من تحتها الساعد الأسمر!

ألا يا سبو يا أمير الشجون حدائقك الآن عطشى!

ودجلة فيك تجلت عروسا تساقى فوارسها، فاسقني!

إنني لا أسر إذا أمكن الجهر!

هذا فؤادي يموج

وموجك يا دجلة اليوم وشحه القصف أجنحة من دم

القدس

ألوأئها من ربيع اللظى.. والشذا عنبر!

فاسقني!

أعاذلُ كُفي من العدل! هذا أوان الخروج، وكل الجراح

تنوح:

إلى م؟.. إلى م ينام على الذل في غمده الخنجر؟

ألا يا مزار الأحبة في يثرب!

أفي آخر الدهر ترعى الخنازير في حرقات الحمى؟

وتشرب من نقطه ما تشاء؟

قريش تنصرت اليوم يا سيدي!

ودانت بدين العجم!

فقد عطّلت شرع بارئها..

وخرت ثمجد شرع (الأمم)!

فها هي ذي بالجوار العتيق تُنصب صلبائها!

وتضرب من قال: (لا)؛ بالحُمَم!

وتستنصر المترفين عليه؛ لتمزيق أوصاله بالصليب

واجباره أن يسير كباقي الغنم!

فيرغو؛ ويرغو القطيع: نعم!

نعم!.. نعم!.. نعم!

ألا يا أمير الغواني يهود لك اليوم ترس

فدمر بلادك! قتل فوارسها الغر..!

وانشر عباءة خزيك فوق الحرائر!

كل النساء لك الآن سبي!

فكل وتخير إذن بين حمر النعم!

وأما العجول فمنذ متى عرضت للأمير؟

ومن أصبعيه جرى النفط (معجزة) أحرقت شجر العز

فينا؟

فواعجبا! حُفراً غدت اليوم كل القمم!

أتعجب؟ ويحك هذا زمان جديد:

غدا سنعانق أهل الكتاب

فإخوتنا في الإله - لفرط محبتهم للسلام - هو الآن قد
 حفروا خندقاً في الخليج
 يعانق فيه الهلال الصليب !
 وبارك هذا الهوى العمُّ سَام
 وباركه بعدُ شيخُ الأُمَم !
 فيا رب! هذي القوافل ساريةٌ في الدجى
 والحداء بها ماجنٌ، لا يغار !
 فمن ملوك الطوائف يا سيدي
 (بِزَلَّاقَةٍ) ! ترفع الذلَّ عنا، وتنسخ شرعَ الظُّلَم ؟

المغرب/المحمدية: فبراير: ١٩٩١ م.

المشاهدة التاسعة (٧)

هَمْسُ النَّيْلَيْنِ

إلى الأديب النائر شعرا: الأستاذ أحمد الأشهب
 (وها هم العرب قتلوا شقيقهم البطل خطأ، ومن حيرتهم
 لا يعرفون كيف يكون وينتحبون! وها هي إفريقيا
 قتلت أخاها دون علم به، والآن تصرخ وتولول!)
 (صيقل الإسلام: ٣٦٥).

⁷ بين مدينتي الخرطوم وأم درمان بالسودان يلتقي النيل
 الأزرق بالنيل الأبيض؛ ليشكلا بعد ذلك نهر النيل الكبير
 الذي يتدفق نحو مصر. ويقال: هنالك هو (مجمع البحرين)
 حيث التقى موسى بالخضر عليهما السلام.

.....

سيدتي ..!

يا زهرة هذا العَبَقِ الأسمر!

يا عطر العود الليلي!

يا وهج البرق الأخضر!

شَعْرُكَ هذا المتدفق عبر النِّيلَيْنِ هائلٌ تسحرنِي ببخور
الجنة!

تملؤني شوقاً نحو منابع هذا الوطن المكنون

عساي أعانق أدغال الماء

وأرحل عبر غداثها نحو تخوم الجرح النازف مسكاً
وجمالاً!

هذا الزورق سيدتي الراحل عبر الهمس الليلي

يناديني أَنْ أَقْبِلَ!

إن جنوب بلادي أعراسٌ قهدي بين الطلقة والطلقة

للأغصان مراكبٍ من عاج فضي

تشرق منهن عرائسٌ ينثرون غداثهن/ جدائلهن قصيداً
غزلياً من أزهار العنبر!آه يا ولدي مَنْ لي بصباي الحالم أغرسه أياماً أخرى
تنمو بالخرطوم حقائق من شجر الأحزان؟
آه يا ولدي لو كان!لو كانت تجربتي الأولى حبا قد صيغت كل قصائده من
لهجة هذا الوادي..

لسكنتُ الآن رياح الزمن الفجري

ولاستنشقتُ - ككل الناس هنا - عَبَقَ الماءِ السَّاجي

وشعاعِ السمرة وهي تبيح لريشتها أن ترسم كل
الألوان!واحائك يا جُرْفُ^(٨) ظلالٌ نخيلٍ تهمس بي في صفحة
هذا النيل الساري عبر فؤادي:^٨ قرية الشاعر بإقليم سجلماسة جنوب شرق المغرب.

أَنْ يَا غصنَ الرَّمْلِ! أما آنَ لبضك أن يرجع للساقية
الأولى

ويزاحم أغصانَ التين على نبع الكوثر؟

لكني سيدتي آه عصيتُ كثيرا، وبعدت كثيرا!

حتى ضاعَ فؤادي بين مدائن ليس لها من بين فصول

الحول سوى عاصفة تغدو وتروح صقيعا تتريا!

فلعل غدا نركُ السوداءَ تضمخني بمقام الصَّخْرِ

إذا ما أبصر هذا الليلُ الساجي بنجوم السَّحَرِ النائرة

الحُبَّ جمالا، وقصيда عذريا، وبقايا من همس بشينة تَنَبَّثُ

مواجدهُ أصداء تتداعى عبر الأزمان!

فلمن تحكي يا أمس مواجعك الآن؟

هذا الولدُ الشاعر قد فتنه الفرسُ الصافيةُ العينين

فها قد ركضت سافرة نحو منابع أنغام الفجر الأولى

كي تشرب من أول دَفَقَاتِ البَيْدَرِ

حين تفيض سنابله رَقَصَ عذارى من جرح أخضر!

عجبا! كيف تحاصرني داليةُ الحزن أغاني من ترنيم
(مهوقني) وأهازيج (النِّيم)؟^٩

وتمنعي أن أسترجع ذاكرتي!

إذ ترسمني طفلا أنبت بين عواطفها الرِّيسى

مسحورا بروائعها، مجذوبَ الوجدان!

سيدتي! إني أعلنت استسلاما للحب الدافق عبر النيل

جنوبا فشمالا!

فخذيني!

إني آليتُ على ألا أمنع عن قلبي اليوم جمالا!

وخذيني!

إني الشحرور المسحور!

فلا كانت أيامي بعد، ولا كانت أشعاري إن حرمت

حلالا!

^٩ مهوقني والنِّيم: نوعان من الشجر المنتشر بالخرطوم.

فسلاما مني يا زورق - ما جَدَفَ المجدافُ - على حقل
القمح الأسمر

والقمرِ النائر فوق النهر بهاءً وجلالاً !

الخرطوم - على ضفاف النيل: ١٩٩٥/٠٤/٠٢.

المشاهدة العاشرة

لا هَبْ وَرُدْ هَذَا الزَّمَانُ !

إلى الشاعر سعيد ساجد الكرواني، على رهبة شفق

غارب؛ لاستشهاد الدكتور فتحي الشقاقي!

(لقد كانت هذه الحكومة تخاصم العقل أيام الاستبداد.

إلا أنها الآن تعادي الحياة بأكملها!)

فإن كانت الحكومة على هذا الشكل والمنطق؛ فليعيش
الجنون! وليعيش الموت! ولتعش جهنم مثوى للظالمين!

صيقل الإسلام/المحكمة العسكرية العرفية، ص: ٤٤٠

.....

بداية الوجد:

تناديني القنيطرة اختلاسا

فأذكرها على بُعد قاسي

وتأزّة ليلها أضنى جناحي

فما نسيَ الفؤادُ وما تناسي

تحاشتنا الطيورُ على تراخ

وكُنّا عندهم قُطُفًا غراسا

فها نَشَفَ الغديرُ فلا هديلٌ

يؤانسنا إذا ما الحُزْنُ جَاسا

فصرنا بينهم من بُعدٍ وُدٌ

نقول - بغير ذنبٍ - لا مِسَاسا!

ذروة الوجد:

وما كل ما تتمنى الموجدُ تدرُّكه!

فآه أيا فارس الغمرات!

أَوْحَدَكَ تمضي؟ ووحدهك تقضي؟ ووحدهك تُبْعَثُ في وطن

القُبَرَاتِ؟ ولا بازي اليوم يكسر صمتَ الصدى؟

فمن يقطف الشوك إذ يفتح في الفجر؟

من يقطف النار حين تفوح أزاهرها عنبراً؟

ومن ذا قدير على فك أَلغاز هذا الفقى..؟

إذ تَسْرِبَلُ أَلْغامه وسرى.. يتشكل من طيفه الفرد

سبعون طيفاً،

إذا سَجَدَتْ أَلهبت كل هذا الشرى حَجَراً حَجَراً!

آه ساحرتي! يا حماسية الخطو!

مَهْرُكِ موجدة في انفجار.. قَتِيلُك فيه الحب فتيل!

فما أكثر القوم حين تعد الفوارس!

لكنهم عندما يُذَكَّرُ المَهْرُ صَفٌّ قليلٌ، قليل!

شيوخُ القبائل قد رفعوا راية العز فوق المواخير ليلاً!

ولكن نساءَهُم في الصباح يعن ضفائرهن بسوق يهود!

فمن لرقاب الزنادقة الخائرين بسيف الفقار؟

ومن للحوافر يَقْدَحُ أحزانها غضباً؟

ويرفع في الجو بعض الغبار!

آه من للصلاة بمحراب تلك الثغور إذا اشتعل الوقت في

غسق القرى؟

هل من إمام يرتل أذكاره عبر مسبحة من رصاص؟

وكيف الصلاة وكل الأئمة قد غرقوا في النجاسة؟

كيف؟ وها الصف من خلفهم يتسكع بين الدروب!

يفتش عن لقمة بين مزبلة لليهود ومزبلة لليهود؟

حماسُ لك اليوم أن تيأسي من فحولة هذي العجول!

فما عاد منها الذي يشحد القرن للنطح

أو يتحرك للفضح

يَنْشَقُّ شيئاً من الريح - سهواً - لِيُصْدَرَ بعض الخوار!

سلام على زمن الضخ عبر الإذاعة سترا لعورة التواطؤ
 هذا زمان افتضاح الخيانة! هذا زمان افتضاح الثوار!
 فيا أيها الولد المتفرد بالسير ليلا إلى موكب الثغر!
 كُنْ أُمَّةً من ربيع الحزن!

فهذي العواصم قد فقدت نبضها!

فقدت لونها! فقدت ريحها! فقدت كل معنى جميل!
 فها رحل الطير، والنهر، والزهر، والساقيات، وكل
 التغاريد

حتى المنازلُ قد أسلمت روحها!

ولم يبق من سكنٍ أو وطن!

لم يبق إلا الصخور ورأس الوثن!

وأشباه قوم يخرون صرعى - وما هم بصرعى -

ولكنهم يتهاوون ذلا بسوق الفتن!

ساحرتي! يا مجنحة الخيل! بارقة الليل قد خطفت كبدي!

فخذيني إليها..!

فإني مشوق بتغريدة الفجر حين صفاء المقام!
 كلما زغرد الموت وهو يزف بشائر حزن جديد!
 فيشتعل الغصن أقواس نصر تهيج التواجد برقاً يشق
 الظلام!

.....

ويكي اليمام!

فلا تنتظر صاحبي..!

دمك الآن نهر يجوب الشوارع في الشرق والغرب
 والخييل ساكنة العين حول القصور، ترد التحايا لو قد
 السياح!

هنيئا لك القطر يا سعف النخل!

هذا أوان التدفق، فانثر عراجينك الزاهيات، وأنداءك
 الطاهرات

فهذا مقام الفناء بقاء جميل!

وإنَّ تواجد هذا الزمان ارتعاشٌ، ووارده طلقةٌ من أذان الصباح!

فهل أذن الرعدُ للعاصفات؛ وللشجر المتبتل في الليل؛
أن يتحرك زحفه رغم الجراح؟
ألا لأهبَّ ورْدُ هذا الزمانِ
فقم صاحبي.. وانطلق في الرياح!

مكناسة الزيتون: ٢٩/١٠/١٩٩٥ م.

المشاهدة الحادية عشرة

المدَارُ المختلف

إلى الشاعر الأستاذ محمد لقاح

(في مثل هذا الزمان لا يأذن الشرع لنا باختيار الترفه!
(...) إن نعمةً ما مندرجةً ضمن كل مصيبة. لاحظها
بدقة لتشاهدها! إذ كما توجد درجة حرارة في كل
شيء؛ ففي كل مصيبة توجد درجة من النعمة!)

الكلمات: ٨٦٩.

.....

(...) وأشهدُ أن فصلك من مدار الإنخفاف!

قد اكتهل الزمان ولم تنزل

فيك الطفولة ترتدي أشواقها

والاختلاف

من ذا قدير أن يفسر حزنه البسّام فيك
 وأن يترجم زهده البدوي فيك
 لما يوقع شعرك المجذوب أحوال الجراح ؟
 فسَلِّ الرياح !
 إذا شَرَّقِيهَا ألقى إلى الفلوات رجعا من معلقة الكفاح :
 يا... !

ومضى الصدى متوجعا !

فتدوي: (إن تكن ...

فأنت مصاب، أنت مصاب !)

فاعزف شجاك بذروة التغريد ينكسر الرباب !

واذن لشرع الشعر أن ينزاح عنا هادئا

فاليوم يبدأ صاحبي شرع الحراب !

لا خضرة تُرجى من السبع العجاف !

فسَلِّ الخوافر في السرى : كيف السرى ؟

العاديات إلى السُّها

الموريات لهيها

وسل الخفاف

.....
 يا صاحبي وجب اللظى فلتشتعل

كل القصائد في جواك !

أنا المرید فدلني !

وأشهد أن فصلك من مدار الإنخفاف !

هذا أوأئك سيدي

فاملاً قصيدك واسقني !

ولتحتمل غدرائك الغضي دماً

حتى الضفاف !

مكناس ٣ ذي الحجة ١٤١٧ - ١٠/٠٤/١٩٩٧

المشاهدة الثانية عشرة

رَمَادُ الطَّيْرِ

إلى صاحب الكلمات الأخرى :
الشاعر الأستاذ عبد الكريم الطبال

(أرى الموت صديقا لا أخافه مثلك !
أدخل القبر باسماء لا أرتعد مثلك ! (...)
سأقوم على صدى أذان إسرافيل في فجر الحشر، قائلا:
"الله أكبر" (الكلمات: ٢٢٩

.....
طَيْفُكَ يَعرِضُ بَيْنَ يَدَيَّ غَوَايَتَهُ الْآنَ !

يسحرنى

يُخطفُنِي مِنْ وَعْيِ الْغَيْبِ الشَّاهِدِ بِالْأَحْزَانِ عَلَى الْأَحْزَانِ
يَلْفَحُ وَجْهِي بِمُواجِدَةِ الْحَرَى ..

وتضطرب الأوزان !

آه سيدتي .. !

هَمْسُ النَّارِ عَلَى خَدَيْكَ رَهيبٌ

أَلْحَظْهُ مَأْخُوذَ الْقَلْبِ

فَيَصْرُخُ فِي وَجْهِي صَمْتُ الْعَيْنِينَ النَّاعِسَتَيْنِ :

وَيْلَكَ يَا وَجْهَ الْحُزَنِ الْخَالِكِ !

إِنَّكَ هَالِكٌ !

إِنَّكَ هَالِكٌ !

وَأَشِيحُ بِوَجْهِي فَوْرًا

فَإِذَا بِي أَبْصَرُ فِي الْأَشْيَاءِ عَمًى

يَبْتَلَعُ الْأَلْوَانَ !

أَوَّاهُ فَقَدْ صَدَقَ السَّحَرُ كَوَاذِبُهُ

فَالْبَسْ خُلُواتِكَ يَا مَجْنُونُ !

إِنَّ الْعَشْقَ غِيَابٌ لَا يَرْجِعُ صَاحِبُهُ أَبَدًا !

ذات مساء ..

جسَّ العطارُ الفرعَ الراكضَ في كبدي ..

أطرقَ دهراً ثم أفاقَ وقال :

دواؤك يا ولدي ..

- وامتألت عيناه أسى - بعضُ رمادِ النّجمِ الساقطِ في

البستانُ !

.....

كانت دالية الليل الساجي تنشر خضرتها ..

وأنا .. وحدي أسري بين مسالك طنجة سراً

أتملى لوحاتها المخبوءة فرداً ، ويدي تحمل فانوساً

مرتعشا :

ويحيى ! أأرى أم أشهد ؟

ها بسمتها المرسومة بالماء على سورٍ أثريّ تنقبض

قليلاً !

قليلاً .. قليلاً !

ويرتفعُ الحاجبان !

.....

حنانيك لا تنطقي !

إنني راحلٌ ..

فما أحزنَ الموتَ بين يدي حوريات الضباب !

سألتك بالله أن ترشدني !

فإني ضللت الطريق إلى النجمة القليل : قد سقطت لوعة

شاهدة !

فشبَّ الحريقُ بأطيّارها والشجرُ

وكان الرمادُ ، وكان المطرُ

وجْهها يشحبُ الآن في أفقِ السورِ مُنْسَحِباً في هدوءٍ

فيبدو اخضرارٌ

كسطح الحميلة ، ينبت من طحلبٍ في الجدارِ

فينمو ، وينمو .. إلى أن يشبَّ غصونا

تطول ذؤاباتها عاليا ، عاليا ..
 كأيدي الملائك تسبح في أفقها
 فتبدو وتختفي وراء مروج السحاب!
 وتحملني الريح يا سادتي فجأة
 تطوح بي في الفضاء ، ضعيفا كفرخ اليمام!
 فتطرحني بين غدرانها .. وأرى :

سور غرناطة الآن يبدو حزينا على الضفة الثانية
 فها الدور من خلفه لم تزل في اصفرار الأسى نائية!
 يكفنها العشب ، فهو الذي لم يزل يذكر العهد منذ
 الطفولة!

يخفي حياء صوامعها والقباب
 وي ..!

كأني أسمع أنغام عود
 تسح كسجع العصافير ، كالمطر العابر
 كالندي ، كالردى

يدب على السعف النائر
 كالدموع التسيل الهويني
 وي ..!
 كأني أسمع أنغام عود
 وبعض الصدى من نشيج الرباب!

وتجلت ..!
 عجبا!

كانت عذراء من الخرطوم تغطي كل عقاص ضفائرها
 السود بأقمصة الشهداء!

قالت:
 أيان شروذك يورسي يا مجذوب؟
 قلت :

كيف عرفت ؟ .. إذن أنت النجمة أنت !
 وابتسمت

- قلتُ : أريني أنظر إليك !

قالت : أولست تراني ؟ أعمى أنت ! فها قد شفَّ

حجابي لجميع الفقراء !

.. أنظر !

ورفعتُ إليها بصري .. فانفجرت !

وأصاب عيوني الحُمَرُ رمادُ ضفائرها ..

فتدفَّقَ مني الإبصارُ جداولَ تلتهم الصحراء !

وعرفتُ :

.....

فجردتُ من عشقي المستبدَّ جناحين ثم انطلقتُ أطيُرُ

إلى قبة الصخرة العامرة !

هنالك قيل : صغار الطيور تُعلِّمُ منطقتها للكبار !

فتصطفُ ترقُبُ لحظتها

عندما يأذن الدَّورُ بالانفجار !

فينهدُ ليلُ البلاد !

وعارٌ رفيعُ العماذ !

أناخَ بكلكله قبل سبع وسبعين من عمُرنا !

فيشتعلُ الريشُ برقاً يذيب السحاب !

يرش العيونَ بماءٍ

وبعضِ الرمادِ

الرباط / مكناس : ١١/٠٨/١٩٩٧ .

المشاهدة الثالثة عشرة

مَبْدَأُ جَرِيح

إلى الشاعر الصديق: الأستاذ عبد الناصر لقاح

(أيها المريض الوحيد الغريب العاجز! (...)) ما دام هو
موجوداً ينظر إليك فكل شيء موجود لك! والغريب
حقاً والوحيد أصلاً إنما هو ذلك الذي لا ينتسب إليه
بالإيمان والتسليم!) اللمعات: ٣٣٧

.....

كما تَجِمُّ الكلماتُ إذا صرختْ أدمعُ الحزن في
مقلتيها..

وَجَمَ الشَّعْرُ هذا المساءُ !

فكان لأبحره الزرق لونُ الألم !

وكان لأفواهه الضاريات صراخُ الردى ..

فها الموج يقذف بالظلمات على الشاطئ المطمئن
لأحلامه ..

وينفجر الرمل يا بؤسه باللهيب!

لتكتبَ شَعْرَ الندَم !

وَمَنْ غَيْرُ نَيْرُونٍ أَبْلَغُ في وصف أحزانه ؟
قال لي:

إنني قد رأيتُ (سُهَيْرًا) تسير هنالك في وحدة الروح
تبكي على أثرٍ من بقايا ودائع بالية!
قال لي :

تتأبط بعضَ قصيدِكَ ، أو بعضَ وَجْهِكَ في صورةٍ
عُشْرَتْ - صدفةً - على بعض أطرافها في الرماد!

فها طَرْفُهَا / خوفُها يرمق الآن طيفك حين تكسّر
غصنك في الريح ليلاً ..

وكان الذي كان ... آه !

وكان نشيجَ جزائريِّ الرَّجْعِ ، يشعل كلَّ الجرائدِ عبْرَ
أسي «أمَّ سَعْدٍ»^(١٠)

يترجم وَلَوْلَا الحزن للريحِ شِعْراً ، فتبكي (سهير) ،
وقد حلَّ طيفُكَ (سيفا) وليدا يسف السُّهَّادُ !
يردد في مهده :

« سأذكر تلك التي ترقد اليوم في مكنٍ
ليس يعرب عن نفسه / اسمه ..

ويجسد حيي لها ..

أو صلاتي إذا ما اشتھيتُ البكاءَ على قبرها ! »^(١١)

¹⁰ (أم سعد): امرأة جزائرية فقدت كل أسرتها في مذابح

الفتنة الجزائرية، فأشهرت الصحف صورها الباكية؛

فكانت لها دلالتها الرمزية!

¹¹ مقاطع من شعر الأستاذ عبد الناصر لقاح. والأعلام

المذكورة في القصيدة أسماء أبنائه.

وتشرد ملء جفونك عَرْضَ البلادِ !
قال لي :

كان بين القبور لها دوحة من هديل اليمام ..
يبث مراثي النَّدَمِ

ويعسح عنا غبار السَّامِ

ولكنك اليوم يا سيدي لست تُصْغِي .. !

وبالأمس قد صدَّقْتَكَ السَّمَاءُ

فامتد حبك في لحظة من صفاء قليل

لكي لا يُكَذِّبَ أشجارَ رَوْحِكَ / شهوة خوفك

ثم انتشيت قليلاً ، قليلاً

وكان اخضرارك غصنا جميلاً

وظلا ظليلاً

وأطلقت فيه حصانا نبيلاً ..

ولكنَّ أمَّكَ لما يزلُ قبرُها — مثلما قال لي —

ينادي سهيرا ، ولا يتذكر منك سوى دمعتيها!

ألست الذي قد أضاع اسمه عابثا ؟

وقد نسجتُ بأحداقها النائمات - وللموت حق -

وسميتُك في حُلُمها (رجلاً) !

عساها قد اخضرارا وتطلق فيه حصانا نبيلًا .. ولكن!

ولكنك اليوم تُحرق كل الحقائق ، تغتال فطرتها عابثا!

وتُهرق من كأسك المرّ بعض القصيد على قبرها!

ولكن اسمك قد ضاع من روحها أسفا!

فها أنت ترمي بكفك / سهمك في حمرة الليل يا

صاحبي!

ثم تشتعل النار غضبي ..!

وتنطلق النائحات بكل الجزائر .. آه !

وفيك لوهران عشق قديم

فتبكي .. عجيب!

فمن غيرك الآن يا سيدي قاتل ؟

ومن غير طيفك ذاك المسجى هناك قتيل ؟

أمك اليوم تنظر من برزخ الغيب ، تنشج في صمتها

الأبدى

قال لي :

لم يزل طرفها - مثلما كان في آخر الليل - يترف حق

تعود!

عسى وجهك المتهدم تحت الظلام الجريح يُذكرها

بعض أحرفه

فتناديك : يا ... !

تحاول أن تتذكر : يا ... !

- يا ولدي ..!

وتنشر فرحتها خضرة :

>> أحبك حتى لتغدو العوالم آسرة

ويغدو القبيح جميلا

أحبك حتى تصير امتداد اخضراري

وأطلق فيك حصانا نبيلًا ! «

فهلّا كففت بُنيّ ؟.. !

وأقلعت عن دس وجهك في معطف الليل !

عَلَيَّ أَذْكَرُ - عند صفاء الغدير - اسمك البدوي !

قال لي : كان ذاك الخريف يهد الليالي بعصف مريع ..

وكان التريف

يملاً الورقات ارتياحاً

ويُخلف كلّ الوعود !

نام كل الجياع وكل الحيارى

سوى نوح (سيف) وخوف (شهيد) ..

وحولهما لم تنزل (مارية)

مدهد دميّتها لاهية

وأُمك .. آه !

بيد أن نوافذ تلك اللحود

لها رهبة الصمت بعد خلوّ الرصيف !

فلم يبق في شمعة الليل من أملٍ

سوى دمة واحدة !

ترقرق في مقلتيها

ولم تهو بعد

عساك تعود !

مكناس : الاثنين : ٢٣ فبراير ١٩٩٨ .

المشاهدة الرابعة عشرة

رائحة الماء

إلى الشاعر المعلم: الدكتور حسن الأمrani

(بينما رسائل النور قد فتحت طريقا واسعا إلى معرفة
الله بتوجهها إلى الآفاق الكونية؛ حتى كأنها عصا موسى
- عليه السلام - أينما ضربت فجرت الماء الزلال!)

المثنوي العربي النوري: ٣٢

.....

مواجيدُ هذا المساء لها عَبَقُ الماء بين النخيلُ

وللرمل أوردةٌ من هيامي

تسف شرودي غناءً شجيا

وتنفث سري جوى بين همس الحصى وسكون الدجى

آه ليت السواقى أنكرن أمري

ليت طيفي لم يقترب من رؤاها

فمن ذا سواها إذن أهرق الروح من قدحي الخزي؟

فكان احتياري الجميل!

وكان الذي كان آه!

خَطَفَ الريحُ مني قميصي الوحيدَ وغربنى في النوى!

فمن ذا قدير على وقف تلك الخيول الرواكضِ بين
القرى؟

يُثْرَنَ بها النَّقْعُ موعدهن دمي!

يهرب الليلُ مني فيفزع عريي وأعدو .. وأعدو ..

لعلي أدرك بعض غداثرها

فأقيد جسمي بهذا السواد الجليل!

قال لي :

عبثا تجري أطياؤك يا ولدي!

فأميرة هذا الليل الهارب قد رسمت أدغالا فوق الرمل
المسكون (بِارْدِي)^(١٢) !

فاهتزَّ عواصفٌ - يا للهول ! - تسوق زغاريد النخل
وحمة الخيل لتفتح أبواب البحر المسجون !

قال لي :

لَيْلُ الرِّباط وحيد

له عطش الملح في دفتيه

وجوعُ المحيط !

فيا حادي الجن مهلا ! .. فإني شمتُ عبرَ الخميل

فقبل تخوم الدخان قرى تعشق الصمت ماءً نَمِرا

فهذي هائلها الآن تَقْطُرُ، تَقْطُرُ؛ حتى تشف القصائد

أرواحها !

¹² إِرْدِي: اسم لبطحاء رملية قاحلة، في مداخل مدينة

أرفود، جنوب شرق المغرب.

فیرتدُّ رملُك / نهرُك سرا بصيرا

يَرى في الظلام ولكنه لا يُرى !

قال لي :

كان نسима خفيا يهب رخاء (بوجْدَة)

أو ربما بين أحراش (تازَة) حين يبعثر أوراقه - فجأة -

في المخطات عشقٌ قديم !

فیرتعش الغصن عند انخفاف الجناح إذا طار في الريح

يا ويلهم ! ..

ها يبيح القصيدُ عناقيدَه للطيور بكل القرى

ولكنه في الرِّباط تَرَبَّبَ عَرَضاً بكل الحوانيت ذات المرايا

ولا من يُحْيِي عوانسَه البائرة !

ولا من يسوم دُماه وأصباغَه النافرة !

قال لي :

- يا ولدي .. وتَعَلَّم !

إِنْ هِيَ إِلَّا أَشْبَاحٌ هَرَبَتْ مِنْهَا الشَّمْسُ فَضَلَّتْ بَابَ

مَغَارِقِهَا

فَلَا تَفْتَنُكَ رَسُومُ الْأَسْمَاءِ

.....

كَانَ النَّهْرُ يِعَانِقُ خُلُوتَهُ فَرْدًا

وَيِثَّ اللَّيْلِ السَّاجِي قَوْلَ الطَّيْرِ النَّاطِقِ بِالْأَسْرَارِ

فَخَلَعْتُ قَمِيصِي ثَانِيَةً وَغَطَسْتُ

تَدَفَّقْتُ

فَكَانَ الشَّعْرُ

وَكَانَ الْمَاءُ ... !

مكناس : ١٩٩٨/٠٦/٢٢ م

صدر للشاعر

- ديوان القصائد، مطبوعات الأفق، الدار البيضاء: ١٩٩٢ م.

- الوعد، مطبعة أنفوبرانت، فاس: ١٩٩٧ م.

- جداول الروح (بالاشتراك مع الشاعر المغربي عبد الناصر

لقاح)، مطبعة سندي، مكناس: ١٩٩٧

- ديوان الإشارات، عن منشورات الدفاع الثقافي مطبعة

النجاح الجديدة الدار البيضاء: ١٩٩٩ م.

- كشف المحجوب (رواية) مطبعة أنفوبرانت، فاس: ١٩٩٩ م.

فهرس الديوان

٤	محراب المشاهدات
٤	جمال المشاهدات
٥	شعر المشاهدات
١٠	المشاهدة الأولى : أو ان
١٣	المشاهدة الثانية : صورة مهربة لبديع الزمان النورسي
١٩	المشاهدة الثالثة : الجواب الأخير لبديع الزمان النورسي
٢٤	المشاهدة الرابعة : لأربعينية الجريد أغني
٣٠	المشاهدة الخامسة : البحث عن فرس استبول
٣٩	المشاهدة السادسة : المكتوب الذي لم يُكْتَبْ
٤٦	المشاهدة السابعة : مواجيد أبي العالية الرياحي
٥٢	المشاهدة الثامنة : دَجَلَةُ مَهْرُهَا من هب
٦٢	المشاهدة التاسعة : هَمْسُ النَّيْلَيْنِ
٦٧	المشاهدة العاشرة : لَاهِبٌ وَرَدُ هذا الزمان
٧٤	المشاهدة الحادية عشرة : المَدَارُ المَخْتَلِفِ
٧٧	المشاهدة الثانية عشرة : رماد الطير
٨٥	المشاهدة الثالثة عشرة : مبدأ جريح

٩٣	المشاهدة الرابعة عشرة : رائحة الماء
٩٨	صدر للشاعر
٩٩	فهرس الديوان
	انتهى بحمد الله .